

قراءة الاسفار المحترقة

للشاعر التونسي محمد خالدي

من احباط سياسي واجتماعي ضمن الاطار الذي كثير ما تسقط فيه
البرجوازية الصغيرة بما في ذلك فئة المثقفين .. ان الواقع هنا
مفلق لا يتماشى وما يريد الشاعر وبالتالي فان الشويرة محاصرة ..
ويصير هروب الشاعر - دون رؤيا مستقبلية غالبا - بمثابة المسائل
او البديل ...

ان البديل عند الشاعر حافل بالاسقاطات على مستوى المرأة ..
او الاسطورة او الشعور الينافيزيقي بالذنب .. ففي نظره للمرأة حزن
مشوب بخوف اجتماعي مودوث هو الوجه الاخر للواقع الحضاري
المتخلف .. ان المرأة - وهي رمز العطاء والحياة والوعي اذ يعبور
قدسيتهما وبتحطيم - التابو - ينطلق الانسان الى افاق اخرى - تصبح
هنا موضوع الاسقاط .. موضوع الخوف .. ومهربا صعبا ، وهذا ما
نلاحظه في اشد ازمات الشاعر على مستويين :

الاول : رؤية الواقع بعيني « الثوري الخائب » كما يعبر الشاعر
فسي قصيدة « قراءة الاسفار المحترقة » التي عنوانها الديوان ..
الثاني : الانتقال المفاجيء من التعبير عن الواقع الثوري الى
احضان المرأة والمرأة الموسى غالبا ، يقول في قصيدة : التجوال في
المن الهمجية (ص ٦٠) :

« .. سوتر الحرس الملكي الشوارع . صودرت الصحف - الشعر -
نبض العروق التنفس . في البار المحها تشرب القهوة المرة الصبح او
تقرا الصحف الاجنبية .. جبراء كانت ملائمتها .. »
او قوله من قصيدة مبعثرة (ص ٧٠) :

اسرني السلطان
علقني
سعرني
ورشني بالطحلب الاحمر والقطران
لواحف المنية ..
نهر من اللذائذ الحمراء
ملاغم المنية
مجاعة نفترس الاعضاء

والامثلة على هذا الانتقال المفاجيء كثيرة وتأتي براعة الشاعر في
كون تلاحق الصور عبر الانتقالات السريعة لا يجزيه بقدر ما يعطينا
مداخل سريعة وذكية لحالة الشاعر النفسية ..

ان الجسد في نداءه يتطلب تلبية لخلق انسان جديد وكذلك صوت
الارض التي يعتبر نداؤها دون تلبية نميرا عن بعد الواقع الجديد الذي
يحلم به الشاعر ..

ان هذا النداء المتجانس في كلا المثلين - الجسد والارض - سواء
مرتديا لباس الواقع او الاسطورة كتعبير عن الواقع .. بدمج المكان
في الزمان .. فيظل النداء في الساحة الشعورية لدى الشاعر تعبيرا
عن البعد .. هي هوة يردمها الشاعر بالجنس والتمرود والثورة على
صعيد - الانا - لكن نفس النداء بالنسبة للارض يظل في لا شعور
الشاعر فهو يحلم مع الارض محاولا خلق استجابة لنداء الارض - الوطن
... متمثلة في الفارس المنتظر .. هذا الفارس العربي دائما والمقبل
من « الصحاري الهوج » .

ان الانتظار هنا عمل - لان الرغبة تحتاج دائما عند الفرد الى
اشياء متدفقة من الاخر اي انها تكون معينة من خلال - رغبة « الاخر »
ايضا - التي تحول دونها قوانين اجتماعية تنوس بين الحسد
المسوح به .. والتحرير ..

في الوقت الذي تتسم فيه المحاولات الشعرية في تونس بالسطحية
وقصور الرؤية النابضة من طبيعة المرحلة سواء اكان الامر متعلقا
بالواقع المحلي ام القومي .. يطل علينا صوت جديد ذو تجربة حديثة
ومواكبة .. لا يمكن اعتبارها اضافة فقط بل .. هي نسخ جديد
لما يمكن ان تكون عليه تجربة الطليعة .. خاصة وان التجربة
الشعرية التونسية الحديثة او ما يدعى « بغير العمودي والحر .. »
هي مجرد ملء للفراغ الابداعي الحالي بل هي تعبير سمج عن ضيق
الافق وضعف اللغة اعتبارا من تطعيم اللغة العربية واستعمال
العامية بل وتراكيبها الفرقة في المحلية .. الى الاخذ الاعمى .. مما
ينفع ويضر من الادب العربي والفرنسي خاصة .. بما هناك من تيارات
وافرات برجوازية مرضية تعبر عن طبيعة مجتمع الاستهلاك
كالبنيوية والوجودية والتجريبية .. الخ .. اكثر مما هي تعبير
حقيقي عن واقع شعبنا .. كما يدعي البعض ..

ومن هنا فديوان الشاعر التونسي - محمد خالدي - القيم مؤقتا
ببفداد : « قراءة الاسفار المحترقة » (١٤) يعتبر خروجا من البوتقة
والصفحة على مستوى الرؤى الشعرية عبر مرحلتين :

١ - مرحلة ذاتية رومانسية خاصة في نطاق رؤية المجتمع ..
وتتسم ببصمات الوجودية وتشيو الانسان نظرا لامتناع العلاقات
الاجتماعية مجردة ومعدومة من كل محتوى تاريخي محسوس .. وهذه
المرحلة متمثلة في القصائد او بتعبير ادق .. القصائد الثلاث الاخيرة
التي اختارها الشاعر واثبتها مترددا كما في تقديمه لها - في اخر
الديوان .. وهو في هذه المرحلة من الابداع - وانتي ستتواصل عنده
متخذة صيغة جديدة كما سنسرى - يعبر عن الضياع والتلاشي
وانعدام الهدف ، فاذا به بحار ممزق السفن كما في قوله في
« سيرته » قصيدة « سيرة محمد خ .. » ص ٦٧ :

عاد غريب الدار
حضنت بقياه الدار
حدث .. قال احبائي
من زمن وانا بحار
ابحرت كثيرا .. وكثيرا .. سفني مزقها الابحار
.....
ودخلت العنات الموبوءة حيث تصبغ الاعمار

ومن ثمة يكون الهرب الى الباربات والى المرأة - التابو في محاولة
يائسة للارتباط بالواقع :

ليلك يامولاني (١) صلب
شقق ... اعصار
.....
عينك هما مرفانا فعلام الابحار

ب - اما المرحلة الثانية فهي رؤية سييسة للواقع تصطبغ الانا
فيها بالواقع فتغدو - انا - الشاعر من قبيل الفردية الاجتماعية ..
باعتبار المعاناة والتفعل في شرايين الواقع رغم ما يحدث بهذا الواقع

وهي ترحل في فضاءنا . لبسنا حزننا
الوحشي احرفنا اصابعنا وقلنا سوف
يأتي الفارس العربي ان نبوءه العراف
صادقة ...

... ولكننا خسرناها .. «

والكماشه التي تطوق الثورة ذات بعدين :

أ - الواقع السياسي والاجتماعي من جهة كما في جل القصائد
ب - الايديولوجية المزدوجة .. وهذا ما نراه خاصة في قصيدة
التجوال في المدن الهمجية (ص ٦٠)

« دخل السائح الأمريكي فندق هلتون
وزع بسماته الصفر ، بن بركة المغربي
يرقع برنسه والحذاء القديم .. »

ان السائح الأمريكي في فندق هلتون هو رمز الامبريالية التي
تطوق انواقع الرث المتمثل في بن بركة .. وما اعقق الدلالة في قوله:
« يرقع .. برنسه والحذاء القديم » ! كدلالة على الخطوات العربية
المحتشمة - موافق الترفيع - الثوري - بدل التغيير الجندري ..
كل ذلك يولد تمردا فوضويا لدى الشاعر او ثورة ضيقة تدخل
في نطاق عالم الانا دون الاشارة الى العالم الخارجي .. يقول الشاعر
في تقديمه لقصيدة « فراءة الاسفار المحترفة » (ص ٥٦)

(هذه فراءة تخاطر رجل متعب يستحضر الماضي ويفوص في
الحاضر فتتداعى افكاره وتختل الى درجة الهذيان انه يرى بعيني الثوري
الخائب .. نهايته تقرب ورغم ذلك فهو يتأمل ويبحث عن نفسه من
خلال الاحتدام اللغوي ..)

ورغم هذه المقدمة فان انفاله يجره فيما بعد في نطاق جدلية
العلاقة بين العام والخاص .. ما دام الشاعر رمزا للثوريين الخائبيين
وما دام الفارس رمزا للانتظار - العمل .. الذي يتجرد من هذه
الصفة في أشد حالات اليأس ليصير تأوهات « سياسي المفاهي » ويظل
الشاعر موزعا بين تفسير الحياة بالسب والرفض والتمرد (رامبو)
والهروب الى عالم آخر من باب « الجنائن المصطنعة » لبودلير وبين
تفسير الواقع الصعب (ماركس) الذي تزداد صعوبته لانعدام التناظر
بين افكار الطبقة السائدة وتمييز قوى الانتاج وسائر الحاجيات ..
من هنا يأتي تحطيم الزمن واتخاذ الاسطورة كوحدة تربط الماضي
بالحاضر وتؤرخ لرؤية مستقبلية .. ان الاسطورة تفقد حلقة اتصال
نتيجة الاحباط كما ان فيها تنفيسا على الشاعر باعتبار ان هناك
ديومة لحالة الشاعر الخاصة .. السياب (؟) (ص ٦) عوج بن عنق
(ص ٨) الحلاج (ص ١٢) .. الخ .

ولئن كانت طريقة استرجاع الماضي بالذاكرة هي ديومة لمحاكاة
حركة الواقع الكوني في تطوره - كما يقول برجسون - فان شاعرنا
يعبر بها عن تجاوز للحاضر لصنع واقع آخر .. لكننا لا نستشف ذلك
بصراحة نظرا لانتفاء الشاعر بنقل الحالة .. من هنا ضرورة عدم
توقف الوعي على الواقع .. وضرورة تجاوزه الى رؤية مستقبلية .
وهذا ما يلام عليه الشاعر فعلا - لان البناء التحتي متى ما كان
مندهورا فالبناء الفوقي ليس كذلك بالضرورة خاصة في العالم الثالث.
فمبنا نستعمل الاسطورة للتعبير عن عبثية الوجود (سيزيف) او
لاحتقار العامة (!) لان رد الفعل الثوري يتخذ الاسطورة تعبيرا للمحنة
الانسان في صنع العالم .. وهكذا تفقد الاسطورة صنعا لواقع آخر
بصورة بروموشوسية ، بل وسيطا بين البناء التحتي والبناء الفوقي
في المجتمع .. وهذا ما نلفت اليه انتباه شاعرنا حتى يتجاوز الام
الحلاج .. والعودة الى الانسان السوي - انسان الاسطورة - طفولة
الحضارة) .. الى رؤية ثورية واضحة ..

ان مجمل الشخصيات التي اختارها الشاعر سواء من التاريخ او
التراث الاسطوري العربيين تلتقي في عدة نقاط :

١ - هي شخصيات اعطت .. وظلمت .. وعطاؤها لم يجد ..

لذلك فرغبة الانسان تأخذ صبغتها الانسانية الاجتماعية لانها رغبة
في المنوع ، هذا المنوع الذي يلوح في بنية المجتمع على شكل - لا -
هو في الحقيقة - نعم كبرى - لتجنس وهذا في ضمير المجتمع فقط !
ان البحث عن الاخر في تجربة - الخالدي - لا يتخذ الحب بل
الجنس معبرا ، وهذا تعبير عن رفض القيود والتوصيات التي يدعمها
المجتمع في الظاهر ويخالفها في صميمه ..

ان الاندفاع الجنسي يبدأ اثر الشعور بالوحشة بينما الانطلاق
من الحب يكون بحثا عن التالف كما يقول علماء النفس وان كان
السيبل الثاني غير معبر عن الرفض الجندري ..

من هنا تبدأ القرية عبر ابعاد مختلفة :

● البعد الجنسي : المرأة - الرجل .

● البعد الذي يشمل « الاخر » بصفة اعم : الانسان - الانسان .

● البعد الاجتماعي والسياسي : الفرد - السلطة ..

وما الخمر سوى تعبير اخر عن الوحشة التي تتبع منها تجربة
الجنس وتصب فيها .. وهما وسيلتنا - محمد خالدي .. وتقلل
الشهوة ممتزجة بالخوف . الخوف من المحرم .. أولا .. والخوف
المتنافي احيانا ، فالانسان جاد في تفلته في الواقع الذي يرفضه
ويتغفل فيه فزيد غربته ومن هنا أمل الشاعر (من فييل الانتحار ..)
في قوله (ص ٥١)

وطني السلوب منفاي اغترابي

كم وددت الموت فيه كي اوصد بابا .. اي باب

وذلك عبارة عن الشعور بالذنب الذي يتطلب العقاب Auto - Accusation
كما في حالة الانتحار الذي لا تكون اسبابه واقعية ..

هناك ناحية اخرى تجدر الاشارة اليها وهي هذا الهروب الى
احضان الام .. وهو تعبير عن فرار - الانا - امام الواقع .
« احببتي النساء كلهن ... ! »

● رغبة في الامتلاك تدل على عدم وضوح الرؤية - المراهقة اذا صح
التعبير .

● تعويض وحيل تعويضية للامتلاك واشباع الرغبات بتحويل المطالب
التي يصعب تحقيقها الى اهداف ممكنة التحقيق . حسب التحليل
الفرويدني .. لكن هذا الامتلاك ما هو سوى تعويض كما قلنا ..
كاحدى الحيل الدفاعية فالواقع لا يملكه سوى الامير .. اما الشاعر
فلا .. لان الامير هو رمز طبقي كما انه رمز للسلطة بالمعنى
الدقيق (ص ٥٧) .

« ... سقطت ميتا على الموائد .. احترقت (كان في عاتقك الشهية
انتحار غررتي) .. الامير في انتظارها : يهيج بطنها يدمر الجميع
... من يشارك الامير ؟ وحده الذي يضاجع النساء .. وحده الذي
... اجوت هاهنا ، هل تعرفون من انا ؟ ومن اكون ؟ »

... ومن يكون الفقراء ؟ .. ان هذا الاحباط الجنسي مواكب
لواقع الاجتماعي والسياسي : الوطن مسافر ابدا .. بل هو منفى
واغتراب .. تعزق بين الواقع والرغبة في التغيير بين السلطة وما
تنادي به .. اصطدام بالتوسطات : الطقوس بين الله والانسان ..
الجهاز البيروقراطي بين الفرد والانسانية .. التحريم بين الجسد
والجسد .. للعبور الى الضفة الاخرى ضفة الخلق والابداع ..

ويأتي من هنا تعبير الشاعر عن اصطدامه بالواقع .. وما
رغبة الامتلاك سوى مجرد حيلة نفسية لان الشاعر سلب كل شيء :
(وطني « السلوب » منفاي اغترابي)

حتى الثورة .. محاصرة .. وكثيرا ما يتطرق الشاعر اليها
بندم .. والندم هنا تعبير عن السخط تجاه المحرم او الزلة ..
الخطيئة .. اللعن الوهمي المبر عن الخوف من الحرية وهذا ما
نقراه له حول محاولات العرب تخطي لون المرحلة :

(شاخت هذه المدن الغربية

مشاهد من الموت الرائع

المشهد الاول

لقد كان حزنا جميلا
فلم ابك الا لعينيك ذات المساء .
وما كنت الا حنين المزامير ..
لحنا تردده الريح عبر ارتعاش القصب
وما كنت وحدي
فقد عبرت في كل القوافل ذاك المساء
بعينيك
حين فتحت ذراعسي ادركت سر
انتمائي
وفاجاني الحزن في مقلتيك صليبا
تعمد بالدمع
كان الصليب بعينيك ظلي !!
ارتيمت عليه ..
فادركت سر ابتدائك في ..
وسر انتهائي ..
لقد كان حزنا جميلا .
فلم ابك الا لعينيك ذاك المساء

المشهد الثاني

تخيَّلت اني على شاطئ الكون جسم
غريب
سيرمي بعيدا بقلب الفراغ .
فحفت ..
صرخت امسكيني ساهوي الى اللانهاية
اما سقطت فما من قرار .

وحدقت .

لن المرايا حوالي كانت سجونا .
ولل مدارات دنت تراهق في لحظه
الاحتضار

هويت

الرييني ..

ون تنعديني مهما مددت ذراعي
بعرقت كيف تمارس بعض الكواكب
نوعا من الانشطار

وساد سكون عميق .

ودوتى بقنب السكون انفجار

لقد كان حزنا جميلا .

فلم ابك الا لعينيك ذاك المساء

المشهد الثالث

انا الان عدت اليك .. فعودي .
لاكتب سفر سعودي .
أفسر نوع العلاقة بين تلاشي الحدود

وبين وجودي .

فحين انطلقت الى مركز الدائرة .

تجاوزت مملكة الفرح المر ..

والبسمة الحائرة .

وحلقت في عالم المطلقات .

رايتك في فرحة الخوف حين الفصول

استحالت خريفا ..

تشديني نحو نهديك في رعشة دافئة

تشديني نحو حلم على كوكب عشقته

الشموس

وقلت : هناك سيفلسنا النور عند

عيون النهار

سنفلت من ربه الفيد

سوف نشق الحصار .

وعرينني في المحطة قبل وصول

القطار .

وقلت بانك ما عدت تحتملين احتراف

المجرات .

نزف الهواجس .. والانتظار .

وقلت .. وفلت .. وما قلت شيئا .

لقد كان حزنا جميلا .

فلم ابك الا لعينيك ذاك المساء

المشهد الرابع

انا الآن في برزخ الحب

أشتاق ان تحمليني اليه .

على ضحوة السكر ..

عبر اغتراب المحار .

وأشتاق ان تذبحيني على موقد

حجري قديم

وان تحرقيني .

فأصعد في عين الناسكين دخاناً

ونار .

اعلمهم من طقوس العبادة حبك ..

والانتحار .

وأخبرهم : ان في الكون حزنا جميلا .

وان القوافل تعبر في العاشقين

بكل مساء .

حمص (سوريا)

اخيرا اشير الى مدى استفلال الشاعر للالفاظ في استعمالها باعتبار دلالتها الزوجية المنطقية من جهة والنفسية من جهة ثانية (وان كان الاستعمال اضعف بالنسبة للدلالة الثانية) فلا بد الى جانب التمجيد الصوتية للفظه .. من ظلال شعورية ملونة تتجاوز ضيق الفهم للمدلول باعتبار اللفظة دائما : موسيقى .. صورة .. ومدلولا ...

ولعله في عطائه المقبل سيطر علينا بتجربة اكثر عمقا وواضح رؤية حيث تضمحل او تنفص بصمات بعض الشعراء العرب على شعره ... كسعدى يوسف خاصة .. واذا اعتبرنا كون هذا الديوان هو باكورة نتاج الشاعر فان ثقتنا تزداد في فرة عطائه التي ستتجاوز - كما نتمنى لها - مرحلة الثورة المفلكة ..

محمد علي اليوسفي

دمشق

(١٨) محمد خالدى - قراءة الاسفار المحترقة - شعر - مطبعة
الفرى الحديثة - ساعدت وزارة الاعلام على طبعه ..

٢ - تمت بعد الموت كتحد تكن الغريب ان البعث يكون دائما واولاده
في البار .. او ضياعا .. وغربة ، وهذه حالة الشاعر ..

٣ - غريتها ذات ديوممة ..

٤ - غلبة التعبير السردى .. الذي قد يبعثنا عن جو المعاناة لدى
الشخصيات .

٥ - بعض الافكار القبيحة - وهذا ما لا نغفره للشاعر قطعا - كما
في لوم الشاعر للفاخر بالله الفاطمي الذي اضطر في اخريات ايامه الى

السؤال بعد الفز فكان تسوله لعنة على الاجيال اللاحقة (!) (ص ١٨)
الحزن الناتج فيك نما فينا

لينك لم تشخذ

لينك لم تك ماضيينا ...

٦ - ان الشعر يدعونا الى الصيرورة اكثر مما يدعونا الى الفهم
كما يقول بول فاليري .. ولا بد من تفجير الواقع عبر الممكن وتجاوز

مرحلة التصوير واستعمال الاسطورة كتاريخ لحالات نفسية واجتماعية
فقط ..